فقه البعد "الاقتصادي" لأزمة العالمين المعاصرة: مقدمتان منهجتان

علي عبد المنعم المصري

Abstract

The contemporary crisis of global financial, then economic, systems usually analyzed, interpreted, and perceived to be solved based on variables from within these two systems. In such frame of thinking, financial assets and leverage, mortgage crisis, stock markets, etc are proposed to interpret the crisis, leaving behind many other vital variables. Vital variables are those of epistemological, axiological and ontological systems that form and guide the financial and economic actors in capitalist-globalized system. Through two methodological introductions, this article, this article proposes the contemporary crisis as an aspect named 'economic' of another deeper, more influential, and circumambient; which the article named "Al-'aâlamîn Contemporary Crisis". In the first introduction, the article suggests that those 'economic actors' are simply men and women, who live complex and multi-dimensional gross story. Such complex gross story cannot be dealt with (analyzed, interpreted and solved) except through a complex model (Fiqh), which budges 'economy' from the center of humanity experience that live a dialectic (and many times conflicts) among its various elements (natural and supernatural) heading to perfectibility, even will not achieve it absolutely. Whereas in the second introduction, the article suggests a writing framework on the subject, which embodies the complex and multi-dimensional model mentioned.

Seringkali krisis sistem keuangan (kemudian ekonomi) kontemporer dianalisis, ditafsirkan, dan solusinya disarankan berdasarkan variabel-variabel dari dalam kedua sistem tersebut; seperti perluasan dalam menerbitkan surat obligasi, krisis gadai properti, krisis bursa, dll. Akan tetapi, terdapat suatu paket variabel lain yang hadir dengan sangat kuat pada latar belakang krisis tersebut, namun absen dalam analisisnya. Adalah paket variabel yang menyangkut sistem epistemologis, axiologis dan ontologislah yang membentuk dan menjiwai para pelaku keuangan dan perekonomian pada sebuah sistem kapitalis yang terglobalisasi. Melalui dua pengantar metodologis, artikel ini menyarankan bahwa krisis kontemporer tidak lain merupakan sebuah aspek yang dinamakan 'ekonomi', dari sebuah krisis yang lebih dalam, lebih berpengaruh dan lebih luas; yaitu "krisis Al-'aâlamîn Kontemporer". Pengantar pertama mengemukakan bahwa para pelaku keuangan dan perekonomian itu tidak lain kecuali basyar (manusia), yang mengeluti sebuah kehidupan yang komplek dan multi-dimensional. Kehidupan yang komplek ini tidak dapat diteliti (dianalisis, ditafsirkan, dan mencari solusinya) kecuali melalui model penelitian yang multi-dimensional pula. Model tersebut adalah Fiqih yang menggeser 'ekonomi' dari pusat perhatian, dan menggantikannya dengan pengalaman manusia yang penuh akan dialektika (terkadang konflik) antara elemen-elemennya (baik yang bersifat syahâdah, maupun gaib) menuju kesempurnaan, sekalipun tidak akan didapatinya secara mutlak. Berdasarkan model fiqih tersebut, pengantar kedua menyarankan beberapa standar penulisan ilmiah fiqih tentang krisis tersebut.

Kata kunci: Krisis finansial global, Krisis ekonomi global, Fiqih, Model Interpretasi Kompleks

(ali.wanis@gmail.com)

هذه توطئة من الطول بمكان، لدرجة أنني أرجو، أول ما أرجو، سعة صدر القارئ الكريم، تطول لأنها تابعة من معاناة طويلة في محاولة التعرف على صحيح الأمور ومن ثم رد الأمور إلى نصابها الصحيح. هي معاناة تحاول أن تعترض على مركزية ما يسمى بـ 'الاقتصاد' وهيمنته على معظم أبعاد حياتنا اليوم، ذلك 'الاقتصاد' الذي بات أبعد ما يكون عن ما ترمز إليه الكلمة من معان. فالكلمة تشير إلى أن ثمة قصد يتم الافتعال (كلمة اقتصاد على وزن افتعال – في علم الصرف العربي) من أجله؛ حيث الأصل في الاقتصاد أن تكون له 'مقاصد' يهيمن عليه، وليست أنشطته الروتينية هي التي تسكنه وتوجهه ، من حيث كونها 'حمائية' في استخدام الموارد وتخصيصها بشكل أعمى يدعي الكفاءة وتحقيق التراكم الرأسمالي، بغض النظر عن الأهداف التي يجب تحقيقها، ومدى جدارتها بالتحقيق.

تحاول إذن هذه التوطئة أن تسترد 'الإنسان' الكامن وراء 'الاقتصاد' وغيره؛ دافعة بأن الإنسان من حيث هو مخلوق متعدد الأبعاد، يخوض تجربة اختبارية ابتلائية تفرض عليه ألا يضع شيئاً في المركز عدا حبه لخالقه واعتماده بنفسه متوكلاً على خالقه في مواجهة سائر تفصيلات حياته وتوجهاتها الابتلائية ساعياً نحو الكمال دون أن يناله بشكل مطلق. تركز هذه التوطئة على تجربة الإنسان المسلم في الكتابة عن الإسلام بمعناه المتكامل الشامل في مواجهة الإسلام المبتور المجزئ، مسلطة الضوء على الأبعاد الإنسانية والمعاني القيمية وراء الفعل الذي ينعت بـ 'الاقتصادي'، بعيداً عن القوالب التحليلة والتفسيرية الجاهزة.

تقترح المقدمة زحزحة الاقتصاد (بمعناه السائد) من مركزية التفكير الإنساني عامة والمسلم خاصة، وبدلاً منه تطرح مركزية التجربة الإنسانية المتكاملة في مواجهة تحدي الابتلاء لاستبار الأحسن (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ – الملك :2)؛ التجربة الإنسانية التي تخوض تجربة الاختبار في مواجهة خيارات تتخذ من الجدل مع نفسها ومع إلهها ومع شيطانها ومع ملائكها[2] ومع مجتمعها مجالاً لها. هي التجربة الإنسانية تخوض غمار الاختبار والابتلاء في سبيل إعمار الأرض (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا – هود: 61) بشكل مستدام ومتوازن، مراعية نمطاً قيمياً يعظم الحق ويطوّع نفسه له حتى يحبه ويعبده (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ – لقمان: 30، وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ– الذاريات: 56).

كما تقترح المقدمة، بما هي منهجية، إزاحة هيمنة ما يسمى بعلم الاقتصاديات Economics على المعرفة المتداولة حول أنشطة الإنتاج والتوزيع والتجارة والاستثمار والتوظيف

---

[2] إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ } – رواه الترمذي والنسائي والطبراني وغيرهم.

وغيرها، وإحلال "الفقه" محله. الفقه بما يعنيه من فهم شامل ومعمق وبين-حقلي multi-disciplinary لتلك الظواهر التي يطلق عليها الآن 'اقتصادية'، وليس الفهم المتداول للفقه على أنه القانون الإسلامي. يمثل هذا الدفع إطاراً تحليلياً لتفهم الأسباب الجذرية الحقة للأزمة الاقتصادية والمالية العالمية الحالية وغيرها من الأزمات التي أنعتها بأزمة العالَمين المعاصرة. كما يمثل هذا الدفع إطاراً تجميعياً في تقديم بعض الوصايا للعاملين في الحقل المسمى ب 'الاقتصادي' من المسلمين.

فسعة الصدر أرجو مرة أخرى من قارئي الكريم..

مسلم اليوم بين سؤال الجدوى – والحوار المبتور – وإغواء نفض اليد من المسؤولية !

يعيش مسلم اليوم حالة من الاغتراب والغربة معاً. إنه اغتراب يمارسه قصداً بغرض الحفاظ على هويته، وغربة صنعها الآخرون من حوله ببعدهم ذي البون الشاسع عما ينبغي أن يكونوا عليه من وجهة نظر المسلم، بل ومن وجهة نظر بدهيات العقل العام البشري. إن المسلم الذي يعيش حالة كهذه يطارده دوماً "سؤال الجدوى" لدى محاولته التفكير، ناهيك عن الحضور الفعال، في قضايا حاضرة تلح على المشاهد والقارئ والسامع، مثل الأزمة المالية أو الاقتصادية أو الركود المرتقب، أو حتى التسونامي المالي القادم.

فانعدام الجدوى تغذيه قراءاته ومشاهداته واحتكاكاته اليومية. فإذا كان الاقتصاد وأزمته هو المطروح عليه كي يفكر فيه أو يفعل من أجله، فإن قوة الانجراف التي تعيشها البشرية اليوم في هذا الصدد تدفع المراقب إلى الكآبة الممزوجة بالعدمية.

فمسلم اليوم يسأل: عن أي شئ هو هذا الاقتصاد؟ أعن تخصيص الموارد لتلبية ضروريات الحياة؟ لكن ما يراه مسلم اليوم يضاد ذلك المنطق المعلن تماماً. فأغلب الموارد يتم تخصيصها للحرب والدمار وإطلاق الصواريخ وصنع القنابل النووية، وإن كانت هناك استثناءات فللهو وللسلع المفاخرات[3]. فالهند التي حطت أولى مركباتها الفضائية على القمر منذ أسابيع قليلة، ولديها سلاح نووي، وتفاوض الولايات المتحدة في حماس منقطع النظير على برامج للتعاون النووي يوجد بها 50% من جياع العالم[4].

ويتساءل: عن أي شئ هو هذا الاقتصاد؟ أعن الأسعار وتقييم السلع وتوزيع عادل للأرباح بين عناصر الإنتاج؟ لكن الحقائق الصادقة الصادمة التي يَخبُرها مسلم اليوم، كل يوم، تباعد بينه وبين جدوى التدخل في سير الأحداث المجنون. إن الطبيبة المصرية (وبعد 7 أعوام من العمل الشاق في طلب

---

[3] راجع في ذلك كل من:

- عبد الوهاب المسيري، المحافظون الجدد وتجارة السلاح، www.aljazeera.net ، الخميس 1429/2/7 هـ - الموافق2008/2/14 م (آخر تحديث) الساعة 16:34 (مكة المكرمة)، 13:34 (غرينتش)
- غانم سلطان، هل يستطيع العالم أن يتجنب الحروب والنزاعات المسلحة، www.balagh.com
- عبد الوهاب المسيري، الحداثة ورائحة البارود، www.balagh.com

[4] مي محمود، الفقر والجفاف.. تسببا في جوع العالم، www.islamonline.net، 2003/10/18

العلم ولابد من إكمال الدراسات العليا حتى يُعترف بها كممارسة لتخصصها في النساء والتوليد، لتصير سنوات الدراسة على الأقل 10 سنوات، ناهيك عن ما تنفقه من أموال في ذلك) تقدر ساعة عملها في مستشفى مدينتها، حيث تعمل لمدة 36 ساعة متواصلة (أثناء نوبات العمل الليلية، وهي واجب وظيفي إنساني) بنحو 0,00005 من ساعة عمل الراقصة الشرقية في أحد الملاهي الليلية بمنطقة الهرم بالجيزة في مصر! ومن أجل هذا اضطرت كثيرات منهن للهجرة خارج الوطن. وقس على ذلك ملايين الفلاحين الذين يروون الأرض بعرقهم يومياً، والعمال الإندونيسيين الذين يعملون لأيام متتالية، دون قسطٍ من الراحة يحسب، في مصنع أحذية Nike، ليأخذ تايغر وود (نجم الغولف الأمريكي) في إعلانه لحساب نفس الشركة ما يمثل قيمة ما يحصل عليه كل العمال في هذا المصنع لعام كامل[5].

ويَعجب: عن أي شئ هو هذا الاقتصاد؟ أعن الأسواق وضمان حصول المستخدم[6] على السلع التي يريدها بأسعار تنافسية؟ أي سوق اليوم يمكن دخولها؟ فالسلع موجودة لكن على المستخدم أن يفكر عشرات المرات قبل أن تمتد يده إليها. فالقابض على السلع اليوم كالقابض على الجمر، والمنتجون الكبار يتغولون ويسطون على تخصصات الصغار. وعن أي شئ هو هذا الاقتصاد؟ أعن استثمارات للأموال بإقامة المزيد من المشاريع؟ لقد استثمرت الأموال ولم تقم المشاريع! فالكبار الظالمون يقرضون أموالهم بالربا للكادحين، لينحر هؤلاء أنفسهم وبيئتهم الطبيعية من أجل سداد ديونهم.

وتبلغ الدهشة مبلغها منه والاستنكار: عن أي شئ هي أزمة الاقتصاد أو المال اليوم؟ ولمن ترصد التريليونات من الدولارات؟ لإنقاذ من؟ الأزمة هي أزمة أصحاب رؤوس الأموال، من مالكي المصارف المالية وشركات التأمين في الدرجة الأولى وأصحاب الحصص الكبرى في مختلف القطاعات الاقتصادية الأخرى، حتى بلغت ثروات أقل من 5% من البشر ما يساوي ثروات أكثر من 80% من "البشر" الآخرين. هي أزمتهم ولكن ليس بمعنى انقلاب أوضاعهم من الرفاهية إلى فقر مدقع وبؤس مفزع، بل هي كثافة الأخطاء (أو قل الخطايا) التي أدت إلى تناقص الأرباح أو انقلابها جزئيا إلى خسائر، والثاني فقدان الثقة المتبادلة "بينهم"، والمقصود هنا هو "الثقة المالية" بمعنى توقع تسديد ما يقرضه مصرف لمصرف آخر[7].

ويحزن: عن أي شئ هو الاقتصاد القومي والناتج القومي الإجمالي؟ أليس عن "قوم" ينسب إليهم بناء النسب؟ للأسف لا، فقد أضحى اقتصاداً دون قوم لقوم بلا اقتصاد. فأغلب اقتصادات

---

[5] هذه الإحصائية بحسب الفيلم التسجيلي The New Rulers of the World، من إخراج الصحفي الانجليزي John Pilger

[6] نميل لاستعمال كلمة المستخدم بدلاً من المستهلك، وذلك اتساقاً مع المرجعية التي تنحاز لها، وهي مرجعية تعتقد بأن الإنسان يستخدم الموارد (أي يطلبها كي تخدمه؛ حيث تشير البادئة "يستـ" في علم الصرف العربي إما إلى الطلب أو التحول) ولا يستهلكها (أي يطلبها كي يقضي عليها ويهلكها).

[7] نبيل شبيب، أزمة مصرفية أم أزمة النهج الرأسمالي؟ (www.aljazeera.net، الأحد 1429/10/6 هـ - الموافق2008/10/5 م (آخر تحديث) الساعة 21:50 (مكة المكرمة)، 18:50 (غرينتش)

الدول النامية والإسلامية اليوم كاقتصاد إندونيسيا (المنفى الاختياري لكاتب هذه السطور)، إندونيسيا البلد الخصب الخَضار، ينتج بإخلاص ما يأمره به السوق الدولي، فينتجه له. وكان الأمر سيصير هيناً لو كان ما يحصل عليه هؤلاء من أموال نتيجة التصدير يعود بالنفع على عامة الناس، إلا أن أغلب هؤلاء المنتجين هم أنفسهم وكلاء للسوق الدولي، مداخيلهم من التصدير تطير لتأوي في أعشاشها الغربية أو الشرقية[8].

لم يعد السوق القومي (المنسوب إليه هذا الاقتصاد) محدداً رئيساً لعمليات ما يسمى بالاقتصاد. ولما اندلعت شرارة الأزمة الحالية، تقاطر ما يسمون برجال الأعمال والبنوك على قصر الرئيس يرجونه أن يخفض سعر الفائدة حتى يتمكنوا من الاستمرار، ضاغطين عليه بأنهم قد يسرحون آلافاً من العمال[9]. لماذا؟ لأن الغرب الذي كانوا يخدمونه بمنتجاتهم يعيش أزمة استهلاك و لم يعد يأمرهم بإنتاج الكميات نفسها... ولتترك الأمهات في إندونيسيا يواجهن الموت بمعدل اثنتين كل ساعة، نتيجة الرعاية الصحية المعدومة أثناء الحمل وساعة الولادة وما بعدها[10].

ويخيب أمل مسلم اليوم حين يراوده أمل يسمى بالبنوك الإسلامية، يا تُرى أتوفر علاجات مستدامة ومتوازنة لكل ما يرصده مسلم اليوم من سوءات النظام السائد؟ يُصدم مسلم اليوم عندما يقرأ شهادة أحد رواد هذه التجربة وهو الشيخ صالح كامل:

> **"إنني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما أيدت اختيار نموذج البنك كإطار لتطبيق تعاليم الإسلام في مجال الاقتصاد والاستثمار. والسبب في ذلك يرجع إلى: أننا لم نكتف باختيار اسم البنك فقط، ولكن اخترنا كذلك مفهومه الأساس وهو أنه وسيط مالي وبالتالي لم نستطع أن نوجد لمؤسساتنا المالية مفهوماً وخطاً يتجاوز مسألة الوساطة المالية، والذي حصل أن الصيغ الاستثمارية أصبحت هجيناً بين القرض والاستثمار، وهو هجين يحمل معظم سمات القرض الربوي وعيوب النظام الرأسمالي الغربي، ويعجز عن إبراز معالم الاستثمار الإسلامي المبني على المخاطرة وعلى الاستثمار الحقيقي، ولا يعترف بضمان رأس المال ولا عائده. ومما يدل على عمق المسألة واستمراريتها أن الهياكل التنظيمية لبنوكنا والتي استقيناها من البنوك التقليدية لا تعير اهتماماً لإدارة الاستثمار لا في حجمها ولا في تخصصاتها بحيث تستوعب جميع ضروب النشاط الاقتصادي المتنوع، واكتفينا بجهاز صغير وجهزنا أوراقنا بما يتلاءم بطبيعة عملياتها الروتينية شديدة الشبه بالدورات المستندية للأنظمة الربوية. والنتيجة التي وصلنا إليها – حتى رغم تعلق**

---

[8] تابع في ذلك الكتاب القيم للمعارض الإندونيسي ورئيس مجلس الشورى الأسبق أ.د. محمد أمين رئيس بعنوان:

"Selamatkan Indonesia, Agenda Mendesak Bangsa"، ومعنى العنوان: "أنقذوا إندونيسيا: الأجندة الضرورية للأمة"

[9] وفق ما أذاعته الإذاعة الرسمية الإندونيسية RRI صبيحة يوم الخميس 13 نوفمبر 2008

[10] بحسب الإذاعة الرسمية الإندونيسية RRI نقلاً عن اتحاد Pita Putih Indonesia لرعاية الأمهات، في برنامج يذاع أسبوعياً يوم الثلاثاء الساعة العاشرة صباحاً، وتعد هذه الإحصائية الموضوع الأساس لحوارات البرنامج.

الغربيين بتجربتنا – أننا لم نتقدم في إبراز الخصائص الأساسية للعمل المصرفي والاستثماري الإسلامي المميزة له. واكتفينا بتطهير أعمالنا من الربا ولكن لم نتجاوز واقع وتأثيرات النظام المصرفي الربوي.إن النتيجة المنطقية لذلك الاتجاه الخاطئ هو تكديس التمويل تجاه الموسرين وذوي الملاءة من الذين يملكون الضمانات بأنواعها، وجعلنا المستثمر وحده يتحمل مخاطر الاستثمار ولا يشاركه فيها المصرف ولم نراع في تمويل العميل الجدوى الاقتصادية لمشروعه بل اكتفينا بالتأكد من قوة الضمانات، ولم نهتم إذا كان التمويل التجاري يسبب آثاراً تضخمية أم لا، أو أنه يربك نظام الأولويات والضروريات أم لا، وهكذا ودون أن ندري أفرغنا العمل المصرفي الإسلامي من مضامينه الحيوية وأهدافه الاستراتيجية والتي تتجاوز مسألة اجتناب الربا إلى المساهمة الفاعلة في تنمية المجتمعات الإسلامية وزيادة إنتاجها. إن عدم التركيز على قاعدة الغنم بالغرم من الناحية النظرية، وإغفالها بالكامل في معظم عمليات المصارف الإسلامية، والتوسع في استخدام الصيغ مضمونة رأس المال والعائد، جعل العامة في حيرة، ومن هذه الثغرة تمكن المشككون من التلبيس على الناس، بل وفتح المجال واسعاً لاستخدام العديد من الحجج المنطقية ظاهراً لتبرير وتحليل الفوائد المصرفي. وأعتقد جازماً أنه لو استمر حالنا في هذا الاتجاه فستفقد البنوك الإسلامية الأساس النظري والعملي لقيامها واستمرارها"[11].

إن خطر الحوار المبتور يراود المسلم المغترب عن غربة (أو قل غَرابة) الآخرين، بشكل يصل لحد الإغواء بنفض المسؤولية كلية عن ذاته. فحتى الحوار الذاتي، الذي يفترض أن يكون أطول الحوارات وأعقدها وأكثرها حصباً، غالباً ما يقع بين حدين كلاهما أبتر. الحد الأول تدور فحواه حول"انعدام الجدوى" نظراً لقوة الانجراف التي تنطلق بها الغربة من حوله، متجهة نحو نقطة اللاعودة. على حين تدور فحوى الحد الثاني حول شماتة 'غير مكتملة' بقوم "نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ" أو " نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ"[12]؛ شماتة غير مكتملة لأنه يشعر بالتورط فيما هم (الناسون المنسيون) عليه، إضافة إلى أن ما يقع بهم يصيبه غالباً نصيب منه.

يالله! أي معاناة هذه، وأي تيه هذا يقطعه المسلم ليل نهار؟ متذبذاً بين حدين لا يتولد عنهما إلا مزيداً من المعاناة والتيه!

إن مسلم اليوم تراوده صبح مساء هذه الإغوائية بنفض اليد من المسؤولية. يحاول مرات أن يدفعها قسراً، فلا تسأم إلا أن تعاود الكرّة، لاعبة على نقاط ضعف تحسبها بعناية داخل تكوين فريستها. إن فشل المدافعة القسرية يدفعه دفعاً للالتحام بتلك الإغوائية، يستسلم لها، ولو مؤقتاً، يعيشها حتى الثمالة، كي يتسنى له كشف سرها وهتك كنهها المتمنع الراغب، لكنه لا يلقى إلا سراباً. فالإغوائية عن "انعدام الجدوى" و "نفض المسؤولية كلية عن الذات" بل "نفي الذات" نفسها، بما هي

---

[11] وردت هذا الشهادة في: مصطفى دسوقي كسبه، مقاصد الشريعة في تنمية واستثمار المال، مع التطبيق على المؤسسات المالية، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، القاهرة: دون تاريخ نشر. ص 124، 125

[12] الحشر: 19 و التوبة: 67

إغوائية، لا تستسلم أبداً، ولا تكشف سرها لراغب في القضاء عليها. إنها تستغل افتراسها منه لتزيد في طاقتها الجاذبة والقامعة له والمتمنعة عليه في آنٍ.

مسلم اليوم والفكرة القبس الكامنة!

غير أن مسلم اليوم لم يزل بشراً، يسأم وتنقطع به السبل، لتحيي قصة أو كلمة أو مشهداً الرجاء كل الرجاء فيه مرة أخرى. لقد استمع أحد العلماء يوماً ما يقول بأن الوليد ابن المغيرة انتهى به المطاف إلى أن (... فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ – المدثر: 18، 19، 20) لأنه لم يعط لنفسه الحرية الكافية في التفكير. لقد "قدَّر الوليدَ فكره، أي ضيّقه ليتناسب مع أهوائه"[13]. تمثل مثل تلك الكلمات رجاء جديداً لمسلم اليوم، فتراه قد آلى على نفسه ألا يهمل أي فكرة، حتى وإن صغرت، ما دامت لا تهدد قيم الحياة الأساسية تهديداً مباشرة (كالرغبة في الانتحار مثلاً).

وبناء على هذا الرجاء الجديد،ينتبه مسلم اليوم إلى أن ثمة فكرة مغتربة مغرَّبة في ثنايا نفسه، كاغترابه وغربته هو، فكرة لم تزل مسؤولة كلية عن حفظ هويته عليه؛ فكرة لا يوفر لها الحضانة اللازمة لأنه يَـــغْـــتَـــرُّ بالغالب في محيطه، غالب يغلب عليه كل ما هو نقيض لها. إنها فكرة يقف منها موقف الهائب المحب المشدوه، لكنه يكاد لا يصدق أنه 'المغترب' أو عالمه الغريب، يستحق هذه الفكرة، وجوداً أو حضوراً فاعلاً؛ وجوداً في ذاته أو حضوراً فاعلاً بتحققها في العالم من حوله؛ تنظمه وتقوده.

إنها فكرة "التعقيد فائق التطور، فائق الجمال (التناسق)، وفائق الإحسان معاً" الذي ينتظم ذاته وبيئته الماديتين والمعنويتين في تناسق عجيب، وبغير انتظار لأجر، في وفاء وسخاء نادرين. ينتظم هذا التعقيد المحسن الجميل ذاته المادية التي تأخذ من جسده مجالاً لها، وذاته المعنوية التي تأخذ من فكره وروحه ونفسه مجالاً لها. كما ينتظم بيئته المادية التي تأخذ من ظواهر الكون الفلكية والأرضية والهوائية مجالاً لها، وتلك المعنوية التي تجسد معاني الحضارة والحب والمجتمع والأخوة.

تعقيد محسن جميل! يالها من فكرة كاملة مؤهلة لتغيير كل شئ وفي لمح البصر. مقولة يراها في تنفسه وفي سمعه وإبصاره ولمسه وشمه وفكره وجريان دمائه. فكرة يراها قبسها مشتعلاً كتلك الشمس الوفية التي تشرق كل يوم بغض النظر عن أرض يكثر الإفساد فيها وسفك الدماء وهي تسبح بحمد الله وتقدس له. فكرة يراها في نسمة الصيف مع تبدل الفصول السخي من حوله، يحي الأرض بعد موات غير عابئ بما يقترفه أهل الأرض من نحر لكل شئ.

تلك الفكرة التي لم تزل لها الغلبة (النسبية)، وإن كان بعضاً مما تمثله قد أصابه ما أصابه. فجهة الصدر التي ينتابها أحياناً نغزات وآلام، في مرافقة لآلام أسنانه التي تساقط جزء ليس باليسير منها، وعسر الهضم المسيطر من سنوات في مرافقة لعسر التذكر، وذوبان الجليد في القطبين، والفياضانات الجارفة، والتسونياميات الكاسرة، والبيوت الزجاجية الخانقة؛ كل هذا يطمس بعضاً من

---

[13] بعد هذا 'تأويل' الشيخ سلمان العودة لتلك الآية، راجع حلقات تفسير سورة المدثر في القناة الأولى الفضائية السعودية

الفكرة القبس، لكنه لا يميتها. فالمسلم اليوم لا يجد مفراً (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)[14] من الاعتراف بالأنموذج القبس الكامن داخله وخارجه، رغم ما أصابه (إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[15].

فهو يذكر، بقليل من المجهود، كيف أنهم، هو ومن حوله من مسلمي اليوم، المسؤولون عن أغلب ما طرأ على التعقيد الجميل المحسن داخله. فالمصريون والسعوديون يستهلكون[16] (أو يهلكون أنفسهم باستهلاك) مجتمعين حوالي 65 مليار سيجارة (65 ألف ألف ألف سيجارة) سنوياً[17]. ويستشري في عالمه هو وعالم من حوله من المسلمين تضييع الأوقات وإهمال صيانة الأسنان والأمعاء، والتكاسل عن لعب الرياضة بانتظام، وحرق الوقود الأحفوري بغير حساب، ونحر الأشجار وطمس كل لون أخضر صبح مساء. هذا، فضلاً عن جيرانه الذين يحرقون القمامة البلاستيكية وينقلون سمومها بانتظام إلى رئتيه. هذه القائمة وغيرها أدت بمرور الزمن لإرهاق التعقيد الجميل المحسن، وإن لم يبلغ أنموذجه الذي كان عليه لحظة الميلاد، واستعداده وقتئذ للسير في نفس الاتجاه، لولا فعله وفعل الناس من حوله.

يتذكر المسلم العادي إذن ما كسبت يداه وما كسبت أيدي المسلمين وآثاره عليه وعلى من حوله، فلا يلبث إلا أن يؤوب لتلك الفكرة القبس، تضيء له ويصطلي[18] منها في غربته الظّلوم.

إن الانتصار المؤقت لفكرة التعقيد الفائق المحسن هذه هي أساس لا يلبث إلا أن ينهض عليه **تيار اللاجدوى** مضاد لتيار عدم الجدوى الذي يتجاسر على أساس الملاحظة البرانية السطحية للغربة التي يعيشها الناس من حول مسلم اليوم. ينهض إذن تيار مضاد للاجدوى في شكل فكرة مغتربة مغرّبة في ثنايا ذات المسلم اليوم. إنه تيار يدفع بأن ثمة حكمة وجمال وحق في تنظيم الأمور على هذا النحو داخل ذاته وخارجها، وأنه يستحيل إهدار هذا التعقيد في تذبذب بين حدين أبترين: الشماتة الناقصة أو الاستكانة والانتظار.

---

[14] التكوير: 26

[15] الذاريات: 23

[16] لا نجد حرجاً هنا من استخدام كلمة الاستهلاك لأن الفاعل 'يهلك' السلعة و 'يهلك' نفسه معها أيضاً

[17] محمود المبارك، التدخين جريمة العصر، الحياة، 2008/6/2

[18] يصطلي: يطلب الدفء { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ – النمل: 7 }

مسلم اليوم بين كر وفر مع اللامعنى

لكن الجوع والمرض اللذين لا داعي لهما ويمكن تجنبهما بأسهل الطرق[19]، والموت المتطاير من حول مسلم اليوم، والذي كثيراً ما يكون "موتاً مُهيناً"[20]؛ كل ذلك يثير موجات عارمة من اللامعنى؛ مُزعزِعة بلا رحمة تيار الجدوى المتدفق حديثاً نابعاً من الفكرة القبس. فشريط الأخبار المتحرك الصغير في أسفل شاشات محطات التلفاز، التي تمتلئ أجزاؤها العليا بحكايات العشق والخيانة وإشاعات المشاهير (المشاهير الذين يتم تنصيبهم كمشاهير رغم أنف المشاهد) وإعلانات الشامبو والكريمات والمبيضات والصبغات، وسائر ما من شأنه طمس الحقيقية المرة الصادمة بمكسبات طعم وطلاءات رديئة؛ يثير هذا الشريط موجات من اللامعنى تغريه، ثانية، بنفض مسؤوليته تجاه هذا التعقيد.

يحكي هذا الشريط الصغير حكايات جد مختلفة عن ما يحدث في الجزء العلوي من الشاشات؛ حكايات أشلاء تتناثر على إثر انفجارات القنابل، وأراضٍ تنفلح تحت وطئة الزلازل، و400 مليار دولار خسرتها الصناديق السيادية العربية في الأزمة الحالية[21]، ومدن تطمرها مياة الفياضانات، وعظام تنخر فيها الفيروسات، ودماء ومرارة تكاد تغلب على كل الطلاءات ومكسبات الطعم والرائحة الرديئة المسرطنة التي يعرضها الجزء الأعلى والأكبر من الشاشات. هذا الشريط المتحرك الصغير يتحرك، ويتابعه مسلم اليوم، وفي تحركه يزيد من إحكام الخناق حول الفكرة القبس.

هكذا يجد مسلم اليوم نفسه في هذا الخضم، عائداً من حيث بدأ.. اللاجدوى تسيطر، والمسؤولية تجاه التعقيد الفائق المحسن الجميل تكاد تخور قواها تحت وطأة اللامعنى. وذاته تغريها إزاغات أرداف النساء في الطرقات وأعينهن الجميلة حيناً بالاندماج فيما يسير عليه الناس. ونفس الذات يغويها الموت المتطاير المهين من حولها بنفض يديه من مسؤولية متابعة المسيرة. حينها تلح في أذنه ترنيمات

---

[19] "طرح أحد الاقتصاديين الحائزين علي نوبل فكرة تخصيص حصيلة ضريبة تفرض علي عوائد الأموال المتناولة في البورصات العالمية تتراوح بين2.5 إلي5 في الألف وتقدر حصيلتها بـــ300 مليار دولار وذلك بهدف مكافحة الفقر علي الصعيد العالمي في فترة وجيزة بيد أن هذه الأفكار لم تحظي بموافقة كافية من البلدان المتقدمة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية واليابان" – يرجى مراجعة: عبد العليم محمد، نقابة الفقراء، المقالات الأسبوعية، موقع مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، http://www.ahram.org.eg/acpss/

[20] " مع ارتفاع وتيرة العنف في العراق نتيجة لتزايد أنشطة فرق الموت والتفجيرات خاصة في بغداد، واستمرار مسلسل العثور يوميًّا على عشرات الجثث المشوهة بدرجة تضيع هوية أصحابها، أصبح منتهى أمل العراقيين عند خروجهم من ديارهم أن يتمكن أهلهم من التعرف على جثثهم في حال وقوعهم في أيدي هذه الفرق!. ولم يجد العراقيون من وسيلة لتمكين أهليهم من ذلك سوى وشم أبدانهم بأسمائهم أو بدلالات معينة". – يرجى مراجعة: مازن غازي، جثة العراقي تعود لأهله بالوشم فقط، www.islamonline.net ، 15:45 مكة - الأربعاء 24 شوال 1427 هـــ -2006/11/15 م.

[21] حسب شريط الأخبار الصغير المتحرك في قناة الجزيرة العربية صبيحة يوم الخميس 13 نوفمبر 2008

الشاعر السوري وهو يرجو الناس أن يخلو الطرقات من المارة والنساء المحجبات، لأنه سيخرج من بيته عارياً، عائداً إلى غابته[22]. أو الماغوط نفسه متحدثاً عن إغراء بالوداع يشبه زجاجة سم في يد قائد مهزوم[23]. ويتناثر اللاجدوى ورديفه اللامعنى على امتداد صحراء 'لافعل' صلاح عبد الصبور[24]. وتأز في خلجاته تأوهات الشاعر الأيرلندي وهو يحكي حكاية الصقر الذي يطير محلقاً في دائرة تأخذ في الاتساع لدرجة أنه لم يعد صاحبه، والأشياء التي تتداعى، والمركز الذي لم يعد يمسك بأجزاء الدائرة، والفوضى التي تهيمن على العالم، وتيار المد والجزر المخضبين بالدماء، لينتهي الأمر به في حالة من الانتظار.. انتظار المجيء الثاني[25]!

لكن.. لكن نفس الذات التي تتعرض للإغراء والإغواء، يُغضبها أيضاً أن ترى التفاهة تتوج بالبطولة، ويكاد يبخعها[26] مشاهد الأشلاء والدماء على الأسفلت المصنوع من 'قمامة' النفط الذي تزهق هذه الدماء من أجله، ويحزها أن ترى الكراهية تحل محل الحب في علاقة الرجل بالمرأة، على الرغم من ازدياد عروض الجمال في الشوارع[27]. نفس الذات تخيفها ظلال اللعنة والمقت الإلهي حالّة على العالم من حوله. حينها، يأخذ هذه الذات تياراً من الحياء المشوب بالخشية والأسف، يأخذها بعيداً في موجات من الاستغفار لتفريط وإفراط بحق أنعم تلفُّها، وفرص بالجملة ضيعتها، وأناس طيبون يجاهدون دوماً لاستجلاب رضاها وللصبر على أذاها. عندها.. تنفتح للمسلم أبواب طالما طرقها، أبواب كانت مغلقة دونه، و لم يكن تغلُّقَها إلا لتمنحه طاقة الندم اللازمة لغسل أدران أدت لإرهاق التعقيد الفائق المحسن داخله وخارجه.

التوبة والرجوع النظامي لفطرة التعقيد الجميل المحسن ودور الكتابة والكاتب

حينها.. يأتيه مدد من دفقات لا يستطيع إمساكها للتأمل فيها والكتابة عنها بالتفصيل السابق. مدد كقطرات ماء مَعين في قَفْرٍ لاجدواه ولامعناه.. إنها دفقات حب الإله وحب الحياة. متكئاً على تلك الدفقات، يلج المسلم الأبواب المشرعة، على خشية ألا تسعفه خطواته للوصول إلى طرفها الآخر. تنطلق ذاكرته، في يسر لم يعتد عليه منذ سنوات، ناقلة إلى ذاته التعبة آيات من الذكر الحكيم. تنقل إليه: (يَا يَحْيَى خُذ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا – مريم: 12)، و (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ– آل عمران: 133)، و (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ – المطففين: 26). تهب هذه الآيُ طاقات تجعله يهبُّ حثيثاً لولوج الأبواب

---

[22] من قصيدة "حريف الأقعة" لمحمد الماغوط

[23] من قصيدة "الغابة" لمحمد الماغوط

[24] قصيدة الفأر المذعور لصلاح عبد الصبور

[25] قصيدة "المجيء/الظهور الثاني" للشاعر الإيرلندي ييتز.

[26] يبخع نفسه: يكاد يقتلها من حرصه على الآخرين {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا – الكهف: 6}

[27] اقرأ في ذلك: دلال البزري، الحرب بين الجنسين في بر مصر، جريدة الحياة، 2008/11/10

قبل أن تغلق ثانية، متذكراً، بخفة غير معتادة، وكأن عسر تذكره قد ذهب بغير رجعة، آية (... آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ ... – النساء: 47). ويتذكر (يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ – يس: 78) فتتصاغر في نظره الفوضى على عرمرمها، ويتذكر (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ – الأنعام: 95) و (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ – الروم: 41) فتنقشع غمامة اللامعنى على دياجيريها ، وتخنس شياطين الغواية؛ فكل تلك الفوضى المخزنة وراءها معنى.. إنه "لعلهم يرجعون".

في عزم، وبين رجاء وخوف إذن، يلج مسلم اليوم تلك الأبواب، لتنمو رغبة الإيمان في نفسه، محدثة ثغرة في خناق اللاجدوى، مكتشفاً واحات خضر في صحراء لامعناها. ينتصب 'محب الإله' و 'محب الحياة'، تنساب دماء الجدوى في جسده الشاحبْ، تتألق حروف المعنى في قلب تغشاه الرؤى.. فيكتب.

من وحي معاناته يكتب مسلم اليوم، لتكون كتابته أبعد ما تكون عن تقليدية العمل الكتابي اليوم بما هو إنتاج روتيني وإعادة إنتاج لمتداول الآراء. يكتب المسلم ليحقق رؤيته في تحقيق تناغم التعقيد الفائق المحسن الجميل الداخلي والخارجي. يكتب ليصلح ما فسد من ذلكم التناغمين. يكتب ليحث الخطا نحو أبواب التوبة المشرعة. يكتب ليحيي الرجاء في نفسه وفي الآخرين. يقول لنفسه وللآخرين بأن الموت المهين المتطاير من حولهم إن هو إلا "بما كسبت أيديهم" "ليذيقهم بعض الذي عملوا" وأن الله "يعفو عن كثير"، وأنه يخفي وراءه غضباً إلهياً.. نعم، لكنه أيضاً يخفي رغبة إلهية في حثهم على الرجوع ؛ إنها رغبة إلهية لم تغلبها بعد ظلال اللعنات والمقت طالما هو وهم يستغفرون (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ – الأنفال: 33).

إذن يتحرك المسلم اليوم كتابةً ليبرهن على حقيقة الرجاء، على حبه للإله والحياة، على تحيزه للخير والمعنى على حساب الشر واللاجدوى. يكتب ليفقه، يكتب ليؤسس لحركة "رجوع نظامية" إلى حال التعقيد الفائق المحسن الجميل الأولى، لحظة الميلاد الجميلة المرصعة بالفطرة والبراءة، بما فيها حالة التعقيد المحسن الجميل في المجال المسمى بـــ 'الاقتصادي'.

أي دلالة لمعاناة المسلم اليوم فيما يخص الكتابة عن الأزمة الاقتصادية المعاصرة؟

يكتب المسلم اليوم عن ما يسمى بـ'الاقتصاد' وفي ذهنه تجربته الكلية تلك. تجربة تزيح الممارسات 'الاقتصادية' الحالية التي يغلب عليها توظيف كل شئ لخدمة النمط الغالب، وإن كان ذلك يحدث بمنتهى "التقدم" التكنولوجي والأناقة المظهرية والتعقيد الرياضي والكمبيوتري اللازم. تلك الممارسات التي صارت تهتم بالكفاءة على حساب الفعالية. تلك الممارسات التي جعلت من معيار

الكفاءة معياراً كونياً بغض النظر عن الأهداف التي تخدمها تلك الكفاءة. تلك الممارسات المنفصلة عن أي قيمة، واكتفت بقيمة وحيدة هي 'الحوسلة' حسب المسيري (رحمه الله)[28].

يكتب مسلم اليوم عن الأزمة الاقتصادية وفي ذهنه إطار تفسيري مختلف كلياً عن المتداول؛ إطار تفسيري ينظر بشمول للقصة بكل أبعادها، المادية والمعنوية، الشهادية والغيبية. إنه الإطار التفسيري الذي لا يكتفي برد الظواهر إلى ذواتها، فتراه يرد الأزمة المالية إلى أزمة أسواق المال أو أزمة الرهن العقاري أو التوسع في عمليات الائتمان، مكتفياً بذلك. لا.. إنه يتجاوز هذا، وإن كان لا يتجاهله، إلى الحديث عن أزمة النظام الرأسمالي، وأزمة نمط المعرفة الاقتصادية السائد، وأزمة القيم المسيطرة. وتراه لا يكتفي بذلك، بل يغوص (أو بالأحرى يرجع) إلى جذور الأزمة في أبعاد معاناته هو الشخصية، حيث الجدل بين ذاته وكل من ملاكه وشيطانه وبيئته البشرية وغير البشرية؛ تلك الجذور التي تقيه شر الاغتراب وتقيه شر التفسيرات البرانية الكاذبة.

يكتب مسلم اليوم عن الأزمة المالية وفي ذهنه إطار للحل، لأنه لا يقتصر على التفسير فقط. إنه يريد أن يكون فاعلاً في تأسيس عملية الرجوع النظامية للحالة المثالية للتعقيد الفائق المحسن الجميل داخله وخارجه. يكتب مسلم اليوم عن الأزمة المالية وفي ذهنه إطار للحل يكمن في إدارة ناجحة لحوارات الذات الإنسانية، حوار يهدف للعمران ملتزماً بقيم حب الحق وتطويع النفس له، وصولاً لحبه وعبادته؛ تماماً كما يعيش هو هذه الحوارات.

هذه الإدارة التي تعلم الحق[29] فتتحمل مسؤولية إعادة صوغ مستقبلها على أساس منه. تعلم أن العلم لن يتولد إلا باجتهاد وحوار صادق مع نفسها، فتتحرى المعلومة وتتأكد من مصدرها، وتعقل المعلومات في دقة وتبين ولا تميل إلا إلى ما له أساس صادق. ومن ثم تعلم، أول ما تعلم، أن الله خلقها وخلق غيرها عن حق وعلم ورحمة وعدل وإحسان، فتدير حوارها معه بدعاء واستغفار وتلاوة لآياته وتدبر وإخبات وطاعة. تطيعه في أن تعتبر مشروعها التجاري الأهم هو التجارة مع الله، وأنموذجها الآيات 10 – 13 من سورة الصف[30]. وأن فرعاً من التجارة مع الله هو استعمار[31] الله الإنسان في

---

[28] راجع في ذلك المجلد الأول من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، وذلك في إطار الحديث عن النماذج الاختزالية والنماذج المركبة.

[29] يعد الحق القيمة الأعلى في النظام القيمي الإسلامي، والذي يشمل، بحسب محمد الكتاني: الحق والعلم والمسؤولية والإيمان والدين والشريعة والعدالة والوسطية وحقوق الإنسان. راجع في ذلك: محمد الكتاني، منظومة القيم المرجعية في الإسلام، من إصدار منظمة التربية والثقافة والعلوم لمنظمة المؤتمر الإسلامي (الإيسيسكو).

[30] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

الأرض بما يعنيه من استثمار مواردها بشكل "يعمرها ولا يخربها"[32]، فتراها تنهض بكل قواها لتجعل من الأرض جميعاً مجالاً لحركتها العمرانية، غير مقتصرة على المعاني الضيقة لما يسمى الآن بالاقتصاد.

تعلم عداوة الشيطان له حق، فلا تتخذه ولياً، وتباعد خطواتها عن خطواته المتمثلة في الإسراف الاستهلاكي[33] وفي الإيهام بالفقر[34]. تعلم أن ملاكها هو صديق لها يبث فيها الخير فتتخذه خليلاً وتقارب خطواتها بخطواته، تعلم أن بيئتها البشرية مليئة بالشر والخير، فتنهى عن الأول وتبتعد عن أهله وتأمر بالثاني وتتآلف مع أهله حافضة له جناحها. وتعلم أن بيئتها غير البشرية، أساساً، مسخرة لخدمتها من لدن ربها، فتراها تقيم حوارها مع بيئتها غير البشرية على أساس من الحب والاحترام والاستخدام قدر الحاجة، مع العمل دوماً على تعويض ما نقص، بل وعمرانها، كي تقدم لبيئتها البشرية المستقبلية أفضل هدية يمكن تقديمها: الحياة.

من وحي هذه الإدراة الناجحة لجدل الذات مع نفسها ومع إلهها ومع ملاكها ومع شيطانها ومع بيئتها البشرية وغيرها، يكتب المسلم عن الأزمة المالية والاقتصادية وغيرها من الأزمات، التي يطلق عليها جميعاً: "أزمة العالَـــمين المعاصرة".

(2) توطئة خاصة
في نهج الكتابة التي ينبغي على مسلم اليوم الالتزام بها
كمعايير للكتابة عن قضية الأزمة الاقتصادية المعاصرة كبعد مهم في أزمة العالمين المعاصرة

تحاول هذه المقدمة الثانية تنزيل إطاري التفسير والحل السابقين إلى أرض الواقع في صورة نمط مقترح للكتابة عن الإسلام ومواقفه تجاه القضايا التي تعن لمسلم اليوم. فحين يكتب المسلم عن الإسلام[35]، بما في ذلك قضايا الاقتصاد، فإن نشاطه الكتابي يثير جملة من القضايا الحيوية نعرضها هنا بشكل مقتضب.

---

[31] يخطئ الكثيرون (للأسف) فيستعملون كلمة الاستعمار كترجمة لـ colonialism. والحقيقة أنه استخراب، لأنه طلب الأراضي التي احتلها ليستخربها لا ليعمرها. على حين تشير كلمة الاستعمار (كما في النص القرآني) إلى طلب العمران.

[32] هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا – هود: 61

[33] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا – الإسراء: 27

[34] الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ – البقرة: 268

[35] نقصد بالكتابة عن الإسلام ما يقع كذلك في نطاق ما يسمى بالدراسات الإسلامية (Islamic Studies)، والتي لا بد وأن تختلف إن قام بها المسلم وإن قام بها غيره.

أولاً.. إن كتابة المسلم هي نوع من الشكر لله على جملة من أنعمه البديعة، المتمثلة في أنموذج التعقيد الفائق المحسن الجميل سالف الذكر، وعلى رأسها تلك الملكات العقلية اللازمة للكتابة؛ من اتساق بين حركات اليدين وحركية التفكير، من اتساق بين حركات اليدين والعينين، من تذكر وتأمل وغيرها، ناهيك عن الملكات الجسدية الأخرى التي تشكل بنية تحتية لكافة أنشطته، كالتنفس والهضم وغيرها، تلك التي تضمن ديمومة ذلك الكائن ومن ثم ديمومة ملكاته العقلية وأخيراً الكتابية.

الشكر: مسؤولية الشهادة والإجادة

إن هذا الشكر يأخذ عند الإنسان المسلم، في تصورنا، شكلين مهمين، الشكل الأول هو مسؤولية الكاتب المسلم في تحقيق الشهادة لله، سواء بتوحيده سبحانه، أو بالشهادة على الناس من خلال كتابته نهوضاً بالمهمة السامية التي أوكلها الله إليه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ– البقرة: 143). والشكل الثاني هو الإجادة والتحسين فيما يكتب (مادة وشكلاً وطريقة ومصدراً وطرحاً) كي يتناسب الشكر مع قدر الأنعم المستخدمة فيه ؛ سواء كان القدر الكمي الهائل (من ملايين الخلايا والشبكات العصبية (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا – إبراهيم: 34، النحل:18)) أو كان القدر الكيفي المعقد عالي التطور (من آلاف العمليات التي تحدث في آن واحد ووفق قوانين متسقة لا تتغير ولا تتبدل في اطراد وتناغم لا مثيل لهما (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ – السجدة: 7)). إن الحصيلة النهائية لكل من شكلي الشكر هذين هو شهادة ملتزمة جيدة على العالم من حوله؛ شهادة العالم لا شهادة الجاهل، شهادة المنصف لا شهادة الجائر، شهادة المتأني لا شهادة العجول.

فعندما يهم الكاتب المسلم بشكر الله عن طريق الشهادة الجيدة في إطار الأزمة المالية– الاقتصادية الحالية، تراه يطبق قاعدة فقهية مجمع عليها وهي أن "الحكم على الشيء فرع من تصوره". فالكاتب المسلم عليه أن يعلم أولاً، بشكل مقبول، ماهيتها من حيث مظاهرها وما يميزها عن غيرها من الظواهر (أو ما أسميه فقه المظاهر)، وتراه لا يكتفي بذلك، بل يغوص بحثاً عن مساراتها المستقبلية، والتي تحدد له أولوية بحثه في هذه الأزمة، فإن كانت ذات إمكانية كبيرة للتأثير على مجريات الأحداث، فإنه يعتبرها أولوية للبحث والشهادة وإلا فإنه يلتفت لما يكبرها في الأهمية، وهذا ما أدعوه فقه الآثار. وعندما يعي الكاتب المسلم أن ظاهرة ما (الأزمة الاقتصادية في هذه الحالة) من الأهمية بمكان، فإنه يسارع لاستكشاف أسبابها. وعندما يرى أن الأسباب المتداولة لها ليست بالكافية، تراه يغوص في مباحث أخرى مساعدة، قد توجد خارج حقل الاقتصاد مثل الدراسات المعرفية والحضارية وغيرها. وعندما لا يصل لجواب شاف يحاول أن يبني قناطر معرفية بين المعرفة الدينية الحقة، التي تمثل نعمة بالغة عليه واجب شكرها أيضاً، وبين ما توصل إليه من نتائج لإدراك ماهية الأزمة وأسبابها، وهو ما أسميه فقه الأسباب.

إن الكاتب المسلم يجعل من شهادته اجتهاداً فقهياً لا يتوقف. وليس بحثاً بالمعنى التقليدي؛ إنه فقه من حيث أنه فهم عميق وشامل ورابط للظاهرة محل الفقه بغيرها من الظواهر، وصولاً للمعنى العام الذي يمكنه لاحقاً من الحضور الفعلي في تناغم مع الظواهر والحقائق الأخرى.

الكتابة كاجتهاد فقهي

إن معايير الجذرية والبلاغة والشمول والتكامل (والتي تلازم الدعوة للإسلام والكتابة عنه– كما سيلي لاحقاً) يمكن تحقيقها عبر إطار واحد يضمها جميعاً هو إطار "الاجتهاد الفقهي"، والذي كنت قد أشرت إليه في عمل سابق حول "فقه الأزمة البيئية"، وعنيت به فقه أربعة أنواع من المسائل هي: فقه مظاهر هذا الواقع الدالة عليه، وفقه آثارها الآنية والمستقبلية، وفقه أسباب هذه المظاهر، وأخيراً فقه التعامل مع هذا الواقع. وفي سياقنا الخاص بالأزمة الحالية يمكننا تطبيق نفس الإطار التحليلي للحديث عن ما يمكن تسميته ب "فقه الواقع الاقتصادي"، أو بالأحرى "فقه الأزمة/الورطة الاقتصادية الحالية"؛ حيث يمكن الحديث عن:

1. ففقه المظاهر، وهو ما يشكل **حاضر الظاهرة**، يساعدنا على الفصل (ولو غير قاطع) بين الظاهرة محل الحديث وغيرها من الظواهر كما أنه يساعدنا على تحقيق فصل (ولو غير قاطع) بين حال الظاهرة وماضيها ومستقبلها. فقد تبدو ظاهرة ما اقتصادية، لكن ماضيها صحي (نتيجة انتشار وباء ما يؤدي لضعف القوى العاملة مثلاً)، ومستقبلها اجتماعي–حضاري (اندثار حضارة ما).

فمثلاً يرصد المسلم مظاهر الأزمة الاقتصادية الحالية من تدهور أسعار الأسهم والسندات، وتباطؤ العمليات الإنتاجية، وتسريح آلاف العمال، وتوقف البنوك عن الإقراض... إلخ؛ منتهياً بتقديم تعريف للموضوع الذي يهم بدراسته كالتالي: **"الأزمة المالية بالتعريف هي الانخفاض المفاجئ في أسعار نوع أو أكثر من الأصول. والأصول إما رأس مال مادي يستخدم في العملية الإنتاجية مثل الآلات والمعدات والأبنية، وإما أصول مالية، هي حقوق ملكية لرأس المال المادي أو للمخزون السلعي، مثل الأسهم وحسابات الادخار مثلاً، أو أنها حقوق ملكية للأصول المالية، وهذه تسمى مشتقات مالية، ومنها العقود المستقبلية (للنفط أو للعملات الأجنبية مثلاً). فإذا انهارت قيمة أصول ما فجأة، فإن ذلك قد يعني إفلاس أو انهيار قيمة المؤسسات التي تملكها. وقد تأخذ الأزمة المالية شكل انهيار مفاجئ في سوق الأسهم، أو في عملة دولة ما، أو في سوق العقارات، أو مجموعة من المؤسسات المالية، لتمتد بعد ذلك إلى باقي الاقتصاد"**.[36]

2. أما فقه الآثار فيقودنا إلى **مستقبل الظاهرة** ويحفزنا أو يبعدنا عن التعامل معها؛ فإن كانت الآثار ستمس متغيرات رئيسة ومصالح أساسية لنا، سواء سلباً أو إيجاباً، فإن التعامل مع الظاهرة يبدو حتماً، والعكس صحيح.

فالكاتب المسلم يتبين له أن اتجاهات الأزمة الحالية المستقبلية ستمس مواضع جد جوهرية من حياته وحياة المسلمين والعالم من حوله (وهو أحد الأسباب الذي دفعنا لتسميتها أزمة في العالمين وليس اقتصادية فقط). إن آثار هذه الأزمة قد تمتد لانتشار الصراعات والقلاقل نتيجة ارتفاع معدلات البطالة، وقد تؤدي لزيادة أعداد الجوعى لانخفاض معدلات المساعدات المقدمة لهم، وقد تؤدي لانهيار اقتصادات دول بأكملها، خاصة المعتمدة على التصدير للدول الغربية التي سيقل فيها معدل الاستهلاك. عندما يتبين للمسلم هذا، فإنه يقرر خوض غمار البحث نظراً لجدواه المتوقعة.

3. ويأتي فقه الأسباب، وهو لب الفقه، ليدلنا على **ماضي الظاهرة** وعلى ما ينبغي علينا التعامل معه إذا أردنا العلاج، إذ غالباً ما تحكي حزمة الأسباب المؤدية لظاهرة ما مسيرة وصيرورة هذه الظاهرة

---

[36] إبراهيم علوش، نحو فهم منهجي للأزمة المالية (1)، www.aljazeera.net، الخميس 1429/11/9 هـ – الموافق2008/11/6 م (آخر تحديث) الساعة 15:25 (مكة المكرمة)، 12:25 (غرينتش)

بدءاً من تكوّنها ونشوئها وتطورها إلى ما هي عليه الآن. وفي هذا النوع من الفقه يجدر بنا التنويه إلى أن الأسباب (ماضي الظاهرة) تتنوع بين أسباب ظاهرية (أسميها أسباباً ورقية) وأسباب خاصة (أسميها أسباباً ساقية) وأسباب جوهرية (أسميها أسباباً جذرية)، وذلك في استعارة للثمار التي لا تنمو بنفسها، بل بفضل أوراقها وسوق أشجارها وأخيراً جذورها؛ بل وبيئتها ككل، وصولاً إلى ربها.

إن الكاتب المسلم عندما يتناول فقه أسباب ظاهرة الأزمة المالية – الاقتصادية الحالية، تراه لا يتوقف عن الأسباب الظاهرة من أزمة الرهن العقاري وأزمة البورصات وأزمة الثقة بين الفاعلين الماليين ومن ثم الاقتصاديين. فتلكم الأسباب لن تؤدي إلى علاج ناجع لأن المسؤولية فيها ليست واضحة المعالم. فكيف لنا أن نعالج رهناً أو بورصةً أو ثقةً؟ إن المسلم الساعي للتفقه يبحث عن الإنسان الكامن وراء الاقتصاد، يبحث عنه ليحاوره ويجادله ويبين له ويهديه إن أراد؛ كل هذا في تزاوج يشبه تضافر زوجي شريط الدي – إن – إيه (DNA) بين ملاحظاته الواقعية التي يعتبره المسلم آيات كونية، وبين آي الذكر الحكيم وأحاديث النبي الصحيحة التي يعتبرها آيات قولية.

من أجل هذا ترى الكاتب المسلم يتعمق أكثر وصولاً للأسباب الساقية؛ فتراه يتناول النظام الرأسمالي كنظام اقتصادي (ينتج ويوزع ويستثمر الموارد والأموال) فيبين أن نظاماً يشكل الاقتصاد الحقيقي فيه نسبة 1: 40 من الاقتصاد الرمزي (أو اقتصاد الربا وأكل أموال الناس بالباطل) لاريب نظام فاشل في إدارة الموارد الاقتصادية لخدمة بني البشر، وأن الأزمات هي عنصر تكويني فيه لا طارئ عليه.

وتراه لا يكتفي بذلك. فالإنسان الذي يبحث الفقه عنه لم يتبدّ بعد. من أجل هذا يتعمق الفقيه المسلم أكثر ساعياً لعرض النظام المعرفي الرأسمالي على طاولة البحث، لأنه يؤمن أن الجهل أصل رئيس في كل بلية. يحاول الفقيه المسلم التعرف على كيف تجمع المعلومات وتصاغ القرارات في النظم الرأسمالية وكيف يتأكدون من صحتها. عندها يكتشف أن النظام المعرفي الرأسمالي هو نظام القطيعة مع الوحي ومع الغيب للدرجة التي تجعله حبيس الواقع بتفصيلاته الظاهرة فقط[37]. كما يكتشف الكاتب المسلم أن النظام المعرفي الرأسمالي هو نظام يهمل المدى الطويل الآجل مكتفياً بمعلومات المدى القصير تحت وطأة شهوة الإثراء العاجل[38].

ويستمر الفقيه المتعطش للعلم، كقيمة ثانية بعد الحق في منظومة قيمه الإسلامية، في طرح الأسئلة وصولاً للإنسان الذي يسعى لإحلال تجربته المتكاملة محل ما يسمى بعلم الاقتصاديات الذي يتوقف عند سطوح الظواهر غير عابئ بالإنسان الكامن وراءها. يطرح سؤالاً: لماذا يجمع هؤلاء المعلومات ويقررون قراراتهم بهذا الشكل؟ يقوده هذا إلى سبب ساقيّ آخر وهو أن ثمة "أزمة قِيَم" تغشى النظام الرأسمالي وتسكنه. القيم بما تعنيه من مجموعة تفضيلات توجه سلوك الكائن البشري.

---

[37] يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ – الروم: 7

[38] {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ – القيامة: 20-21} و {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا – الإنسان: 27}

فالبشر يحب ويكره، ويحب هذا أكثر من ذلك، ويكره هذا أقل من ذلك، ويحترم هذا ويزدري ذلك، ويحس بأوتار قلبه تعزف لشئ ويشمئز من آخر... مجموع هذا ما يسمى بالقيم.

يكتشف الكاتب المسلم، في رحلته بحثاً عن فقه لأسباب الأزمة المالية الحالية، أن النظام الرأسمالي (وهو المجال مكاناً وزماناً الذي حدثت فيه الأزمة تحديداً وإن لم تكن اتساعاً) مصاب بداء يصعب البرؤ منه. إنه سيادة مجموعة من التفضيلات المريضة على الذوق العام الموجه له؛ تجعله يفضل الدنيا على الآخرة، والعاجلة على الآجلة، والتخمة على التوازن، والاستئثار على الإيثار، والبشرة البيضاء على البشرة الملونة، والدمار والتسلط على التراحم والبناء... إلخ.

لكن ذلك لا يشفي غليل الفقيه المسلم. إنه لم يزل يبحث عن إنسان فرد يمكن الحوار معه وجداله وهدايته إن إراد. يبحث عن الإنسان ليدعوه للحاق به في حركة الرجوع النظامية التي سبق الإشارة إليها. حينها لا يجد الفقيه المسلم بداً من العودة للحوارات الذاتية وجدالاتها داخل الإنسان عموماً والرأسمالي خصوصاً بين الإنسان وشيطانه وملاكه ومجتمعه وبيئته. تلك الحوارات التي يتحتم على الذات البشرية أن تديرها بشكل ناجح يقربها من الحق والعلم والخير ويبعدها عن الباطل والجهل والشر. ويكتشف الكاتب المسلم أن ديناميات تلك الجدالات قد بُسطت كأوضح ما يكون في كتاب الله الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فالقرآن يبسط أحوال الجدل والتفاعل بين الله والإنسان: من هداية وإخراج من الظلمات إلى النور وبركة ورحمة، أو إمهال وضنك وإزاغة وإرسال للشياطين تأز أزاً. كما يبسط أحوال الجدل بين الإنسان والشيطان من استعاذة وخنس أو استعانة واستحواذ. كما يبسط أحوال الجدل بين الإنسان والملك حديث النبي المذكور في المقدمة.

من أجل هذا ترى الفقيه المسلم يجتهد ليدرك المرحلة التاريخية التي تمر بها الحضارة الحالية التي نبعت منها الأزمة من منظور آي الذكر الحكيم وصحيح الأحاديث النبوية. يصنف الفقيه هذه الحضارة هل هي في طور الإمهال، أم الإزاغة أم الإضلال أم الطمس أم الضنك أم التمهيد للأخذ؟ ومن ثم تراه في فقه التعامل يطرح حلولاً ناجعة بناء على ما انتهى إليه من إمساك بجذور الأزمة.

4. وأخيراً يأتي **فقه التعامل** جامعاً خيوط الظاهرة كلها، ظواهرها ليعالجها، آثارها ليكبح السلبي ويحفز الإيجابي، أسبابها ليقضي على السلبي منها ويحفز الإيجابي. إن هذا النوع من الفقه، من وجهة نظري، هو أدق وأخصب أنواع الفقه جميعها. ففي هذا النوع من الفقه يجري التزاوج بين فقه الكتاب والسنة وفقه الواقع من أجل إصدار الأحكام وتحديد طرق التعامل مع مختلف أنواع الظواهر.

ثانياً: إن الكتابة عن الإسلام تعد أحد أشكال الخطاب (القول) بكل إشكالياته

وثاني هذه القضايا التي يثيرها نشاط الكتابة لدى المسلم هي إشكالية القول/الفعل. إن الكتابة هي أحد أشكال القول، هذا القول الذي ينبغي، بل يجب، دوماً أن يكون على مسافة قصيرة جداً من الفعل. أعني بالمسافة القصيرة هنا أن القول لا يجوز أن يسبق الفعل (في تصوري ذي الأساس القرآني) على أي حال إلا بمسافة جد قصيرة. وإن طالت المسافة بين القول والفعل فإن ذلك قد يوقع المسلم تحت طائلة 'المقت' المذكور في الآية الكريمة (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون – الصف: 3).

إن ما ينتج عن فقه الأزمة الاقتصادية (وأي ظاهرة أخرى) من حيث مظاهرها وآثارها وأسبابها يمكن إدراجه تحت بند القول الذي يتوصل إليه الباحث المسلم. ولكن **دورة الفقه** التي يمر بها الكاتب المسلم، الذي شهد معاناة ليست باليسيرة ليقتنع بضرورة تأسيس حركة رجوع نظامية للتعقيد المحسن الجميل داخله وخارجه، لا تتوقف عند هذا الحد. إن عليه أن يترجم ما توصل إليه من قول إلى فعل، في حياته الشخصية أولاً ثم الأقربين ثم المسلمين ثم غيرهم وفق سلم أولويات يضم الحركة التعاملية الشخصية والدعوة إليها. تلك الدعوة التي لابد أن يرافقها **هندسة للخطاب** الدعوي بحيث يتناسب مع الفئة المخاطبة. وعليه، فإن الكاتب المسلم يكتب مطالباً دوماً بأن يساوق فعله قوله، وهو الأمر الذي يزيد من قيمة المسؤولية الملقاة على عاتقه، حاعلاً من كتابته سيراً وئيداً لا هرولاً، مادة كثيفة لا زبداً، طرحاً موجِهاً لفعل ممكن، لا سمراً ليس من ورائه طائل، أو تكلفاً ليس من ورائه إلا العنت.

فعندما يكتشف الباحث المسلم (الطامح لأن يكون فقيهاً) أن من أسباب الأزمة الجذرية الحوار الإنساني المتجاوب مع الشيطان والمناوئ للرحمن في موضوع تخصيص الموارد، وذلك عبر تبذيرها ووضعها في غير موضعها أو من جهة أكل أموال الناس بالباطل، أو من جهة إهمال الضروريات وإيثار التحسينات والمحرمات؛ عندما يكتشف ذلك، فإن أول ما ينبغي عليه فعله هو أن يسارع لتطبيق ذلك على نفسه وأهل بيته والأقرب فالأقرب. ثم يتلو ذلك دعوة لما علم.

ثالثاً: الكتابة عن الإسلام كدعوة

وثالث هذه القضايا، وليست آخرها، التي يثيرها النشاط الكتابي لدى المسلم، هي قضية الدعوة. فالكتابة بما هي قول (أو خطاب *discourse*) تشكل بالضرورة أحد أشكال الدعوة المهمة. إن هذه القضية تثير جملة من المعايير التي ينبغي أن تشيع في ما يكتبه المسلم. وأهمها ما دعوته سابقاً بهندسة الخطاب الدعوي.

1. المعيار الأول: ما تنص عليه الآية الكريمة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن – النحل: 125). فخطاب الكتابة لدى المسلم هو خطاب حكمة بالأساس، محسن بالجملة. خطاب حكمة في طرحه وفي مادته، وخطاب إحسان في طريقة إيصاله وتواصله.
2. والمعيار الثاني: الذي ينبغي أن يشيع في كتابة المسلم باعتبارها نشاطاً دعوياً، هو **معيار الإبانة.** إن الداعي هو من يقوم بتوضيح الحقائق المبهمة، بما في ذلك إرشاد القلوب العاقلة المتلقية بالآفات التي قد تعتريها وتعيقها عن تفهم الحقائق الواضحة. إن الداعي (في هذه الحالة الكاتب المسلم) هو من يواصل مهمة النبي، والنبي هو النذير المبين (وقل إني أنا النذير المبين – الحجر: 89)، وهو المرسل بلسان عربي مبين (... وهذا لسان عربي مبين – النحل: 103)، وفي مقابلة 'مبينة' بين القرآن ونوع آخر من الخطاب الذي تغلب عليه التورية وهو الخطاب الشعري يقول الله عز وجل: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين – يس: 69).

إن معيار الإبانة يعد، عن حق، معياراً خصباً من معايير الدعوة الإسلامية. فمن هذا المعيار تتفرع أبعاد أخرى عظيمة النفع ولا تقل خصباً عن أصلها وهو الإبانة.

3. البساطة: إن الكاتب المسلم وهو يكتب ليدعو ويبين لا بد له من اتباع سبيل البساطة غير المخلة بما هي نقيض للتعقيد المضلل. وللبساطة مستويان مهمين؛ مستوى الحقائق المطروحة من حيث هي ظواهر تتكون من عناصر ذات علاقات فيما بينها، كما تربطها بغيرها من الظواهر علاقات أخرى، وحينها ينبغي على الكاتب أن يبدأ ببسط العلاقات الأولية الرئيسة الحاكمة ثم الثانوية الفرعية التابعة. والمستوى الثاني هو مستوى اللغة المستخدمة في بسط تلك الحقائق، وحينها ينبغي على الكاتب أن يستخدم لغة يمهد لها ولمفاهيمها ولا يفاجئ القارئ باصطلاحات غامضة أو سياقات لم يتم الحديث عنها من قبل.
4. الجذرية: وعليه أيضاً أن يكون جذرياً باحثاً عن الجذور الحقيقية للمسائل التي يطرحها ولا يتوقف عند أسبابها الظاهرية.
5. البلاغة: من حيث هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو مراعاة أحوال المخاطبين، ليضمن الكاتب بلوغ مقصوده إلى المخاطب.
6. الشمول: كما ينبغي مراعاة بعد آخر ليكتمل معيار الإبانة وهو بعد الشمول. فالمشكلة المعينة قد لا يتبينها القارئ إلا بعد استقصائها من جميع جوانبها.
7. التكامل: فثمة مشكلات قد لا يمكن تبينها إلا بعد ربطها بظواهر أو مشكلات أخرى وهو ما يُطلق عليه تكامل الظواهر.

رابعاً: الكتابة عن الإسلام كجهد تربوي

ثمة بعد آخر للإبانة، يستحق أن يُفرد له مبحث خاص. إنه البعد المتعلق بدور النبي، ومن ثم الدعاة المسلمون من بعده، في تزكية الناس بإزالة الأدران المعيقة لإدراك الحق (من شرك وشبهات وشهوات تدفع لارتكاب الآثام). فالقرآن الكريم يربط مراراً وتكراراً بين المهمتين: تبيين الحقائق من خلال تلاوةالكتاب وإزالة الأدران (التزكية) من نفوس المتلقين لتلك الحقائق الواضحة. يقول الله عز وجل: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ – البقرة: 129)، ويقول أيضاً: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ – البقرة: 151)، ويقول عز من قائل: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ – آل عمران: 164).

إن تفهم هذه المعادلة بين تبيان الحقائق وإزالة الأدران المعيقة عن تلقيها يقيم بعداً تربوياً لمهمة الكاتب المسلم. فهو يكتب لا ليعرض حقائق وبيانات مصمتة، بل يجتهد في أن تصل هذه الحقائق كما هي، عن طريق تمهيد الطريق لذلك. إن الكاتب المسلم يهتم أول ما يهتم بإزالة الأدران عن ذاته ليتسنى له إدراك الحقائق كما هي. ومن ثم تراه يجهد كي يبينها للناس، ولا يكتفي بذلك، بل تراه يحاول أن

يدعو الناس إلى إزالة أدران الشرك والشبهات والشهوات عن ذواتهم كي يتسنى لهم إدراك الحقائق التي يدعوهم إليها.

إن إدراك هذه العلاقة يحتم على الكاتب المسلم في قضايا مثل الأزمة المالية والاقتصادية وموقف الإسلام منهما؛ يحتم عليه – مثلاً – أن يوضح للناس (وخاصة المسلمين) العلاقة بين ما هم عليه من أدران كدعّ اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين وبين تكذيبهم للحقائق الصادقة[39] التي تتجلى أمام أعينهم دوماً وهم عاجزون عن إدراكها، ومنها حقائق التعامل بالربا كماحق للبركة، والتبذير كأخوة للشيطان، وأخوة الشيطان كسبيل لتوهم الفقر[40]، وتوهم الفقر كسبيل مفضي إلى الجشع... إلخ. كما أن عليه أن يوضح لهم أن مسائل مثل قطع الرحم وتتبع عورات إخوانهم لها من العقوبات ما يجعلها معيقة لهم عن حسن استثمار أموالهم.

إذن يكتب المسلم عن الاقتصاد وأزمته وهو يحاول أن يكون شاهد حق لا زور، أن يكون شاهد عدل لا جور، أن يكون شاهد علم لا جهول. ومن جانب آخر يكتب المسلم وهو يحاول أن يكون مثالاً لما يقول، وأن يكون داعية فعل ممكن بجد لا نافخ بوق. ومن جانب ثالث يكتب المسلم وهو يحاول أن يكون داعية مبيناً ومربياً في آن. وأخيراً يفعل المسلم كل هذا في تفقهٍ وإحسان وتجويد ولا يكتفي بأداء الأمر بكلفته الدنيا.

خاتمة

تعد المحاولة السابقة باقتراح مقدمتين منهجيتين عند نظر المسلم اليوم في واقع الأزمة المالية – الاقتصادية الحالية؛ تعد محاولة حد ابتدائية، يعتريها من أوجه النقص ما يعتري كل عمل هو في أوائله. ومنتهى أملها هو أن تكون قد ألقت بحجر صغير في بركة راكدة سيطرت عليها أساطير ما يسمى بعلم الاقتصاد؛ حيث يتم التعامل مع قضايا إنسانية بحتة مركبة ومتعددة الأبعاد باعتبارها قضايا أرقام وأشكال بيانية صرف. مما زاد الطين بلة أن تتم إحالة هذه الأساطير على علوم أخرى كالإحصاء والرياضيات وهي علوم ذات سمعة تؤكد على مصداقية نتائجها. غاية ما تأمله هذه المحاولة هو أن تكون قد نجحت في توجيه الأنظار للقصة الحقيقية وراء الأزمة الحالية وغيرها من أزمات العالمين المعاصرة؛ إنها قصة الإنسان المبتلى، قصة الجدل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، قصة الخير والشر الأبدية.

والله أعلم بالصواب

---

[39] أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) – سورة الماعون

[40] الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ – البقرة: 268